

تقييدُ السِّيَاقِ فيما يبدو ممكناً للمُشتركِ اللَّفْظِيِّ، مقارنةً في النَّصِّ القرآنيِّ

م.د. بسام إبراهيم علي

جامعة تكريت / كلية التربية _ طوز / قسم اللُّغة العربيَّة

bassam.i.ali@tu.edu.iq

المُلخَص :

يُفصِحُ البَحْثُ عن ظاهِرة المُشتركِ اللَّفْظِيِّ؛ لكونها إحدى خصائص اللُّغة العربيَّة، مع بيان رسوخها في اللُّغة بشكلٍ جليٍّ، وانعكاس أثرها في القرآن الكريم، إذ تمثَّلُ مصدرًا للنَّراءِ الدَّلاليِّ خارج السِّيَاقِ. غير أنَّ توظيف السِّيَاقِ القرآنيِّ يكشف الدِّقَّةَ في تحديد المعنى المناسب للفظ المُشتركِ؛ ما يجعل السِّيَاقِ أداةً محوريَّةً لضبط الدِّلالة. وعليه جاء البَحْثُ موسومًا بعنوان: "تقييد السِّيَاقِ فيما يبدو ممكناً للمُشتركِ اللَّفْظِيِّ، مقارنةً في النَّصِّ القرآنيِّ"، إذ أُختيرتْ عبارة "ما يبدو ممكناً" للدِّلالة على أنَّ اللَّفظَ المُشترَكَ قد تحمل أكثر من معنى، لكن السِّيَاقِ يحدِّد أيَّ المعنى المراد استقراره ضمن الآية. فاللفظ المُشترَكَ، وإن كان يحتمل أكثر من معنى في اللُّغة عموماً، فإنَّه لا يستقرُّ في سياق القرآن إلا على معنىٍ تسنده القرائن، إذ تعمل القرائن السِّيَاقِيَّة على تحديد الدِّلالة المقصودة. ويبرز عبرها الدور الحاسم للسِّيَاقِ في كشف وترجيح الدِّلالة الصَّحيحة، بما يضمن استقامة التفسير.

الكلمات المفتاحِيَّة : تقييد، السِّيَاقِ، السِّيَاقِ القرآنيِّ، المُشتركِ اللَّفْظِيِّ.

Contextual restriction of What seems Possible in Lexical Polysemy:

An approach to the Qur'anic text

Dr. Bassam Ibrahim Ali

Tikrit University / College of Education - Tuz / Department of Arabic

Abstract:

This research investigates the phenomenon of lexical polysemy as a salient feature of the Arabic language, demonstrating its firmly rooted presence in the language and examining the manifestation of its influence in the Holy Qur'an. outdoor the limits of context, polysemy represents a source of semantic richness. but, the employment of Qur'anic context exhibits a excessive degree of precision in determining the supposed that means of polysemous expressions, rendering context a valuable device for regulating that means. accordingly, the take a look at is entitled : Contextual Constraints on apparent opportunities in Lexical Polysemy : An technique to the Qur'anic textual content . The word apparent opportunities is deliberately chosen to signify that a polysemous expression mayalso convey multiple meanings, yet context determines which meaning is meant to be hooked up inside the verse. hence, even though a polysemous term may typically admit more than one meaning in the language, in the Qur'anic context it settles on a single which means supported through contextual signs. those contextual cues feature to specify the supposed importance., the decisive function of context turns into evident in uncovering and prioritizing the precise that means, thereby ensuring the coherence and soundness of interpretation.

Keywords: Restriction, Context, Qur'anic Context Homonymy Polysemy.

المقدمة :

الحمد لله والصلوة والسلام على محمد، ومن والاه ، وبعْدُ : خير ما نتلوه كلام الله تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [ص: 29] . إذ تقوم حقيقة التدبير على إمعان النظر والتفكير في ألفاظ القرآن في سياق الآية أو الآيات، والربط بينها للوصول إلى معرفة المراد منها، ومن ثمَّ العمل بها . ومن هذا المنطلق اخترنا ما يشكل معناه، وهو المتشابه من القرآن، مقارنةً في ضوء السياق ، إذ جاء العنوان " تقييد السياق فيما يبدو ممكنًا للمشترك اللفظي ، مقارنةً في النصِّ القرآني " ، واختيرت عبارة " ما يبدو ممكنًا " للدلالة على أنَّ اللفظة المشتركة قد تحمل أكثر من معنى، لكن السياق يحدِّد أيَّ المعنى المراد استقراره ضمن الآية . فاللفظ المشترك، وإن كان يحتمل أكثر من معنى في اللغة عمومًا، فإنه لا يستقرُّ في سياق القرآن إلا على ما تسنده القرائن؛ لذا فلم نأخذ الممكن من المعنى في اللغة للمشارك خارج السياق بل اقتصر على ما يرشد السياق إليه، وإن غلب أحدهما في القوة على الآخر. واقتضت خطة البحث أن تكون من المقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث ، وخاتمة بالنتائج . أما التمهيد فاختصَّ بالتعريفات، والمبحث الأول : ضمَّ السياق القرآني، والثاني: المشترك اللفظي، والثالث: نماذج تطبيقية .

التمهيد :

التعريف بالمصطلحات المفتاحية :

أولاً: السياق :

1- السياق لغة : يدور لفظ السياق في المعجمات العربية حول جملةٍ من المعاني، من أهمها: التتابع والتراسل، أو التوجيه. (ينظر: تهذيب اللغة، 9/185، ولسان العرب، 10/160، والمعجم الوسيط 464). فمن المعنى الأول ، قال الأزهري (ت: 373هـ): " تساوقت الإبل تساوقاً: إذا تتابعت ، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة " . (تهذيب اللغة 9/181)

وقال الجوهري (ت: 323هـ) : " يقال : ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي: بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية " . (الصَّحاح 4/1499)

وقال ابن فارس (ت: 323هـ): " السين والواو والقاف أصلٌ واحدٌ، وهو حدو الشيء يقال ساقه يسوقه سوقاً (...)، ويقال سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقتها. والسوق مشتقةٌ من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق " . (مقاييس اللغة 3/111) والسياق: المهر، قيل: للمهر سوق؛ لأنَّ العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهاراً؛ لأنها كانت الغالب على أموالهم . (ينظر: لسان العرب، 1/111). وقال الزمخشري (ت: 335هـ): " من المجاز: هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجنتك بالحديث على سوقه، على سرده " . (أساس البلاغة 1/484).

2- السياق اصطلاحاً :

تعددت تعريفات اللغويين المحدثين للسياق ، فمنهم من حدَّه بأنه " الأجزاء التي تسبق النص، أو تليه مباشرة، ويتحدد من خلالها المعنى المقصود " . (معجم المصطلحات اللغوية والأدبية: 83).

وآخرون رأوا أنَّ " السياق هو: تتابع المفردات والجمل، والتراكيب المترابطة لأداء المعنى " . (السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية: 71).

فبهذا يكون مفهوم السياق هو: نسق منظم يبيِّن المعنى المقصود من حيث تتابع المفردات وتماسكها، وانتظام الجمل داخل التراكيب واتساقها، وربطها في بيئتها، فبه تتضح دلالة الألفاظ ومعانيها؛

كونه يرتبط بمقام معين، تتحدد في ضوءه قرائن الحال، يقول الزركشي (ت974هـ) مؤكداً: "السياق هو أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم". (البرهان في علوم القرآن: 2/200). ويرجع د. فاضل صالح السامرائي أهميته إلى أننا به "نعرف الحقيقة من المجاز، ونعرف المقصود للألفاظ المشتركة، ونعرف الذكر والحذف، وخروج الكلام عن ظاهره، وما إلى ذلك مما يحتمل أكثر من دلالة". (الجملة العربية والمعنى: 59)؛ لأن السياق هو ما يدل على مقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه.

وإجمالاً أن هناك تواشجاً بين معنى السياق اللغوي والاصطلاحي فلا يعدوا إلا أن يكون السياق بهما: ما دل على انتظام متوال في الحركة؛ للوصول إلى غاية محددة. {وَسِيْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ رُمًّا} [الزمر: ٧١].

ثانياً: المشترك اللفظي

1- **المشترك اللفظي لغةً**: يعنى المخالطة والمقارنة، ومنه قوله تعالى: { وَأَشْرِكُهُ فِي آمْرِي } [طه: ٣٢]، ويقال: اشتركنا بمعنى تشاركنا، وقد اشترك الرجلان وتشاركوا، وشارك أحدهما الآخر، ومنه: فريضة مشتركة: يستوى فيها المقتسمون وطريق مشترك: يستوى فيه الناس، واسم مشترك: تشترك فيه معانٍ كثيرة. (ينظر: العين، الفراهيدي: 293/5، الصحاح للجوهري: 4/1307).

قال ابن فارس: "الشَّيْبُ وَالرَّاءُ وَالْكَافُ أَصْلَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَىٰ مُقَارَنَةٍ وَخِلَافٍ انْفِرَادٍ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَىٰ امْتِدَادٍ وَاسْتِقَامَةٍ. فَالْأَوَّلُ الشَّرِكَةُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لَا يَفْرُدُ بِهِ أَحَدُهُمَا. وَيُقَالُ: شَارَكَتْ فُلَانًا فِي الشَّيْءِ، إِذَا صِرْتَ شَرِيكَهُ. وَأَشْرَكَتْ فُلَانًا، إِذَا جَعَلْتَهُ شَرِيكًا لَكَ". (مقاييس اللغة: 3/265)

2- **المشترك اللفظي اصطلاحاً**: فهو اللفظ الواحد الذي يطلق على معانٍ مختلفة ليس بينها ما يجمعها؛ وهو ما يفهم من قول سيبويه (ت180هـ) "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين (...)"، واتفق اللفظين واختلاف المعنيين، نحو قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة. وأشباه هذا كثير". (الكتاب: 24/1).

وهو بعبارة بعض أصوليين: "اللفظ الواحد الذي يطلق على موجودات مختلفة بالحد والحقيقة إطلاقاً متساوياً كالعين تطلق على العين الباصرة، وينبوع الماء وقرص الشمس، وهذه مختلفة الحدود والحقائق". (معيار العلم، لابن حامد الغزالي: 81).

وقد يراد بمختلف الحدود والحقائق بأنه "لفظٌ وُضِعَ لمعنيين أو أكثر بأوضاع متعددة". (الوجيز في أصول الفقه: 285)، أي: إن لكل معنى من معانيه وضعاً على حدة، كأن يوضع لهذا المعنى ثم يوضع مرة ثانية لمعنى آخر، وهكذا...

وعرفه السيوطي (ت911هـ) بأنه: "اللفظ الواحد الذال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة" (المزهر: 369/1).

المبحث الأول: السياق القرآني

المطلب الأول: مفهوم السياق القرآني

كما مر آنفاً أن السياق هو: تتابع المفردات والجمل والتراكيب المترابطة لأداء المعنى. ففي ضوء هذا التعريف يمكن القول أن السياق القرآني - أيضاً - هو: تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى، واستناداً لذلك تبرز دلالة السياق القرآني بأنها: بيان المعنى من خلال تتابع تلك المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة. (ينظر: نظرية السياق القرآني، مثنى عبدالفتاح محمود: 15).

وثمة تعريف آخر للسياق القرآني أكمل دلالةً، وأوضح بياناً من سابقه، مُفاده أنّ السياق " تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال". (السياق القرآني وأثره في التفسير، عبدالرحمن المطيري: 72)

" والمقصود من تتابع المعاني : ترابط المعاني الفرعية لخدمة المعنى الأصيل الوارد عنها ذكره في السورة، ودون انقطاع، أي: من غير أن تكتمل المعاني التي تتحدث عنها الآيات، فلا يصح أن تقف الآيات أرساً دون أن تكتمل المعاني وتتجسد للرائي، ودون انفصال، أي: دون أن يكون هناك فاصل أجنبي، من غير أن يكون له أيّ داعٍ، أو ارتباط بموضوع الآيات ". (السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي : 14).

وما يؤيد هذا المفهوم الإمام الطبري عند تأويل قوله تعالى: { مَا نُنسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا } [البقرة: ١٠٦] إذ قال : " إنّما اخترنا ما اخترنا من التأويل طلب اتساق الكلام على نظام في المعنى". (جامع البيان في تأويل القرآن: 2/ 481) ، وقال أيضاً: عند تأويل قوله تعالى: { قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ } [آل عمران: من الآية ٧٣] " وإنما اخترنا ذلك من سائر الأقوال التي ذكرناها، لأنّه أصحها معنًى، وأحسنها استقامةً، على معنى كلام العرب، وأشدّها اتساقاً على نظم الكلام وسياقه ". (جامع البيان: 516/6)

فهناك ارتباط معنوي بين أحاد النص القرآني، سواء أكان آية أم سورة، أم مقطوعاً من سورة، وهذا الارتباط قد لا يبدو للناظر في الوهلة الأولى، فيظن أن المعاني متفككة الأواصر لا ارتباط بين أحادها، وفي حقيقة الأمر، هي متناسقة على أشد ما يكون عليه الاتساق والارتباط؛ فقد تذكر قصة ثم يتلوها ذكر مواضع، ثم أوامر ونواه، ثم وعد ووعد، وهي تدور في فلك موضوع واحد مترابط متناسق، والذي يكشف هذا الأمر ويعين عليه، دراسة المعاني باعتبار اتصالها وارتباطها بما قبلها وما بعدها .

المطلب الثاني: أهمية السياق القرآني

وقد تنبه العلماء قديماً إلى أهميته حين أشاروا إلى قاعدة مهمة، وهي تفسير القرآن بالقرآن وهذه القاعدة نجدها في عصرنا الحاضر بما يعرف بالمنهج السياقي الذي جعل للسياق الدور الحاسم في فهم النصوص وتحديد معاني الألفاظ، وضبط دلالاتها، إذ بين العلماء المعاصرون أنّ تحديد معنى الكلمة يرجع إلى علاقتها مع الكلمات الأخرى، وهذا ما نجده لدى فيرث، زعيم المدرسة السياقية الذي صرح بأنّ الكلمة لا يتضح معناها إلا من خلال " تسييق الوحدة اللغوية " بمعنى: وضعها في سياقات مختلفة لتحديد معناها وفق السياقات الواردة فيها . (ينظر علم الدلالة، أحمد مختار : 68)

ويستمد السياق القرآني أهميته من كونه تفسيراً للقرآن الكريم بالقرآن نفسه ، إذ إنّه : تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال، بل إن سياق الآية وسياق المقطع من أعلى مراتب تفسير القرآن بالقرآن؛ لأنّه في محل واحد . وهذا الضرب من التفسير – أي تفسير القرآن بالقرآن – أفضل طرق التفسير وأصحها حيث إنّه لا أحد أعلم بمعاني الكلام من المتكلم نفسه، فإذا تبين مراده من الكلام نفسه، فإنه لا يعدل عنه إلى غيره .

قال ابن كثير (ت774هـ): " فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إنَّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، أجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر". (جامع البيان 8/1)

ويعدّ " تفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير"، (التبيان في أقسام القرآن: 181).
لكن يلاحظ في تفسير القرآن بالقرآن كون التفسير لا يتنازع فيه اثنان لوضوحه واستبانته، وأوضح أمثله ما يكون على طريقة السؤال والجواب، أو على طريقة ذكر الموصوف ثم إتباعه بأوصافه. ومن أمثلة طريقة السؤال والجواب قوله تعالى: { وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ } وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٦٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٦٣﴾ [الطارق: ١ - ٣]، فتفسير الطارق لا محالة هو النجم الثاقب، والخلاف في المراد بالنجم الثاقب لا يخرج عن كونه هو الطارق، ومن أمثلة طريقة ذكر الموصوف وإتباعه بأوصافه قوله تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣] ، فتفسير أولياء الله بأنهم الذين آمنوا وكانوا يتقون من تفسير القرآن بالقرآن، فالسياق القرآني معتبر في الشريعة الإسلامية، وهو ليس وليد هذه الأزمان المتأخرة، وإنما هو مرتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً منذ القدم، فلا يفهم الكلام عند العرب إلا ضمن سياقه، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، وقد ثبت عن النبي _ صلى الله عليه وسلم_ مراعاة السياق القرآني في تفسير القرآن الكريم، واعتباره السياق القرآني في التفسير واستخدامه له، يدل على أهميته وأصالته، ومن أمثلة ذلك: " عن عبد الرحمن بن سعيد، أنّ عائشة، زوج النبي _ صلى الله عليه وسلم_ قالت: سألت رسول الله _ صلى الله عليه وسلم_ عن هذه الآية: { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ } [المؤمنون: ٦٠ - ٦١] قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: " لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم { أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون: ٦٠ - ٦١] ". (رواه الترمذي في تفسير أبواب القرآن 327/5). فالنبي _ صلى الله عليه وسلم_ وضع المعنى باستخدام السياق القرآني، واستدل بلحاق الآية على المعنى المراد، كل هذه الأقوال تدلّ على أنّ العلماء اهتموا بالسياق القرآني، واتخذوه كمنهج مأمون في تفسير كلام الله عزّ وجلّ؛ لأنّ له الأثر الأكبر والقيمة العظمى في تحديد المعاني وفهم الكلام .

المطلب الثالث: أنواع السياق القرآني

نظراً لتنوع الزوايا التي ينظر منها إلى المفردة القرآنية يتنوع السياق القرآني، فهناك سياق من حيث حدود الدلالة، وهناك سياق من حيث العلاقات التركيبية بين أجزاء النص، وثمة سياق آخر من حيث العلاقة بين النص ومحيطه الخارجي، وتفصيل هذه الأنواع كالآتي:

أولاً: أنواع السياق من حيث حدود الدلالة

أ - سياق الآية :

من المعلوم أن المفردة أو اللفظة القرآنية قد يكون لها أكثر من معنى، وهذه المعاني كلها تكون محتملة في تفسير اللفظة، ولكن إذا نظرنا إلى هذه اللفظة في ضوء سياق الآية التي وردت فيها، فإنه " حينئذٍ تتحدد المعالم لهذه المفردة، ويتضح المراد منها ويقطع بإرادة أحد معانيها المحتملة في هذا الموضوع، وينتفي تعدد المعاني واشتراكه وتعميمه. وفي هذا النوع من أنواع السياق يكون النظر في سياق الآية (سباقها ولحاقها) دون تجاوز ذلك إلى ما سبقها أو لحقها من آيات ، لتحديد واقتناص المعنى المراد لأحد المفردات من خلال معانيها المتعددة والمحتملة ". (السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية

تطبيقية، لعبد الرحمن المطيري: 106)، ومن الأمثلة التي توضح ذلك لفظ (الإحسان) : يُطلق على الإسلام، والعفاف، والحرية، والتزويج، ويتحدد معناه والمراد منه من خلال السياق . قال تعالى: { فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُخَالِفُوا بِاللَّغْوِ أُمَّةً بَدَأْتُمْ فِيهَا لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْزِيََكُمْ أَعْمَالَكُمْ } [النساء: ٢٥]. اختلف العلماء في المراد بالإحسان إلى قولين: أحدهما: الإسلام، والثاني: التزويج والذي يدل عليه السياق هو القول الثاني وذلك ؛ " لأنَّ الصفة لهن بالإيمان قد تقدمت في قوله: { من فتياكم المؤمنات } فكيف يقال في المؤمنات: فإذا أسلمن؟ وقد رجح هذا القول الإمامان ابن كثير والشنقيطي، رحمهما الله تعالى. (ينظر تفسير البحر المحيط، لأبي حيان : 597/3).

ب: سياق النص أو المقطع

وهو جزء من السورة له سياقه الخاص، ويتناسب وسياق السورة الكريمة، ويأتي سياق النص كجزء ووحدة من جملة السورة يكون موضوعه واحداً وغرضه واحداً، لكنه يتناسق ويتناسب مع وحدة السورة العام، ويظهر هذا النوع من السياق غالباً في سياق القصص، وبعض التشريعات، والموضوعات . (نظر: أنواع السياق في القرآن الكريم دراسة تفسيرية موضوعية، د. أمال سيد حميد : 104). ومن الآيات التي توضح هذا النوع قوله تعالى: { وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } [يوسف: ٥٣]. اختلف العلماء حول هذه القولة، أحدهما : أن القائل هو يوسف - عليه السلام - يقول الإمام أبو إسحاق الزجاج (ت311هـ) رحمه الله: " والذي عليه المفسرون أنه هم بها وجلس منها مجلس الرجل من المرأة إلا أن الله تفضل عليه بأن أراه البرهان، ألا تراه قال: { وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }، والمعنى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به. (معاني القرآن وإعرابه : 101/3). الثاني: أن هذا القول من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف _ عليه السلام _ (البحر المحيط في التفسير : 288/6) والذي يدل عليه سياق الآيات هو القول الثاني .

ج: سياق السورة

كلُّ سورةٍ من سور القرآن الكريم لها محور عام وغرض رئيس أو أكثر يستخلص من سياقها العام ، وتكون المقاطع ذات الأغراض الخاصة في السورة ، " فتتناسق أوضاعها، وتتألف عناصرها، حتى إنها لتتنظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها ذات محور عام." (السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية ، لعبد الرحمن المطيري : 113) يقول د. محمد عبد الله دراز - رحمه الله - : " إنَّك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً؛ فإذا هي لو - تدبرت - بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول ، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول ؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة ، لا تحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد آية التضام والاتحاق كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنَّما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً ". (النبا العظيم : 188) ، والنظر في سياق السورة له أهمية بالغة في الكشف عن معاني ألفاظها والترجيح بين المحتمل لآياتها ومعانيها، وكذلك الرّدّ على بعض الشبهات الواردة فيها. ومن الآيات التي تبين لنا أهمية سياق السورة قوله تعالى: { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات : ١٥٨] . اختلف العلماء في المراد بالحضور في الآية الكريمة على قولين: أحدهما : أن المراد بالحضور حضور العذاب

في النار . الثاني : أنّ المراد بالحضور الحضور للحساب . (جامع البيان للطبري 12/122). وقد رجح الإمام الطبري - رحمه الله - القول الأول أنّ المراد بالحضور الحضور للعذاب واستدل على ذلك بسياق السورة الكريمة، إذ ورد ذكر الإحضار في هذه السورة مرتين غير هذا الموضع الأول { وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [الصافات : 57] والثاني: { فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات : ١٢٧]، وكليهما بمعنى الإحضار للعذاب. (ينظر : جامع البيان 12/122)

ثانياً: السياق من حيث العلاقة بين النص ومحيطه الخارجي

يقسم السياق هنا إلى قسمين، هما :

أ - السياق اللغوي، ويطلق عليه كذلك : سياق النظم، وسياق النص، وسياق المقال .
ب - السياق غير اللغوي، ويطلق عليه كذلك : سياق الحال، وسياق المقام .

أما السياق اللغوي : فهو الذي يرتبط بالقرائن اللغوية التي يتضمنها الدليل ويستدل بها على مدلوله من جهة اللفظ والمعنى لتحديد المعنى اللغوي، أو ما يعبر عنه بالمعنى النحوي أو الوظيفي للجملة الذي قد تتعدد احتمالات دلالاته فيصيح بحاجة إلى اعتبار القرائن لرفع تلك الاحتمالات وتحديد المعنى المراد .

وأما السياق غير اللغوي : فهو الذي يعتمد على القرائن غير المرتبطة بالدليل والمدلول لتحديد مراد المتكلم بحسب مقتضى الحال ، وهذا المعنى هو المعبر عنه بالمعنى المراد من الخطاب أو مقتضى الحال، ويشتمل على عناصر متعددة تتصل بالمُخاطَب والمُخاطَب، وسائر الملابس التي تحيط بالخطاب، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظة في اللغة، كاختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة في القرآن الكريم، إذ تُذكر بعض معانيها الوافية بالعرض في مقام، وتبرز معانٍ أخرى في مقامات مغايرة حسب مقتضيات الأحوال . (السياق القرآني وأثره في التفسير : 159).

وبالمجمل يمكن القول بأنّ السياق غير اللغوي هو : " كلُّ ما يتَّصلُ بالكلمة من ظروف وملابسات ، وعناصر غير لغويّة " . (آليات الحجاج في كتاب الاستدراك على أبي علي في الحجة، أطروحة دكتوراه : 194).

أمّا السياق اللغوي فهو : " سلسلَةٌ من التتابعات اللغوية التي تحف بالكلمة ، وتساعد في الكشف عن معناها " . (محاضرات في اللسانيات : 114) .

المبحث الثاني : المشترك اللفظي

المطلب الأول : مفهوم المشترك اللفظي

المشترك اللفظي عند الأصوليين واللغويين :

ولعلّ تعريف اللغويين للمشترك هو أدق ما يحدُّ به، فالمشترك عندهم: " اللفظ الواحد الدال على معنيين فأكثر على السواء عند أهل تلك اللّغة "، وذكروا أنّ الاشتراك في الأفعال كما في (راح: بمعنى ذهب ورجع)، والحروف مثل (من الجارة: تكون للابتداء، وللتبويض، والواو : للعطف والحال)، والأسماء مثلوا له بعين الماء ، وعين المال، وعين السحاب " . (دراسات في فقه اللغة ، صبحي الصالح : 302).

ويحدّه ابن فارس (ت 395هـ) بأنّ " تُسمّى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد، نحو: عين الماء، عين السحاب " . (الصاحبي: 69) أمّا عند الأصوليين، فيعرفه الجرجاني(ت 816هـ) بأنّه : " ما وضع للمعنى الكثير بوضع كثير ، كالعين " . (التعريفات : 215)

المطلب الثاني: أقوال العلماء في وقوع الاشتراك في اللغة، وأدلتهم
اختلف العلماء في وقوع الاشتراك في اللغة إلى أقوال خمسة: (ينظر: الأقوال وأدلتها ، لسراج الدين الأرموي/1/112/113).

القول الأول: إنَّ الاشتراك في اللغة واجب واستدلوا على ذلك فقالوا: المعاني غير متناهية؛ لأنَّ الأعداد أحد أنواع المعاني وما من عدد إلا وفوقه عدد أكبر منه إلى ما لا نهاية والألفاظ متناهية؛ لأنَّها مركبة من حروف متناهية، وهي الثمانية والعشرون المعروفة، والمركب من المتناهي فإذا وزعت المعاني غير المتناهية على الألفاظ المتناهية: فإن استوعبتها لزم أن يكون اللفظ الواحد له أكثر من معنى واحد، ولا معنى للاشتراك إلا هذا وإن لم تستوعب الألفاظ المعاني، لزم أن يوجد من المعاني ما ليس له لفظ يدل عليه، وهو محال؛ لأنَّ الألفاظ مستوعبة للمعاني فكان الاشتراك واجباً.

القول الثاني: إنه مستحيل، واستدلوا على ذلك فقالوا: إنَّ اللغة وضعت لقصد الإفهام، وجود المشترك يخل بالفهم فيستحيل وجوده في اللغة التي جاءت والقصد منها الإفهام.

القول الثالث: ذهب أصحابه إلى إمكان وجود المشترك، إلا إنه لم يقع في اللغة واستدلوا على ذلك فقالوا: إن ما يفهم منه أنه مشترك لفظي فهو إما من الحقيقة والمجاز كالعين حقيقة في الباصرة مجاز في غيرها، أو من المتواطئ، كالقراء.

القول الرابع: إنه ممكن، وواقع في اللغة، ولكنه غير واقع في القرآن والسنة. واستدلوا على ذلك فقالوا: بأنَّ الاشتراك لا يترتب على فرض وقوعه محال فيكون جائز، الجواز العقلي، وأنه وقع في اللغة، كلفظ الجون للأبيض والأسود (العين) للبصرة و الذهب و الشمس والموضع الذي يتقجر منه الماء، و(المولى) للسيد والعتيق. واستدلوا على عدم وقوعه في القرآن والسنة فقالوا: إنه لو وقع في القرآن والسنة فإن كان مبيهاً، كان تطويلاً من غير فائدة، والقرآن والسنة منزهان عن ذلك وإن كان غير مبين، كان غير مفيد، فيكون لغواً، واللغو في القرآن والسنة باطل.

القول الخامس: إنه ممكن عقلاً، وواقع في اللغة والقرآن والسنة، واستدلوا على الجواز والوقوع في اللغة بما استدل به أصحاب القول الرابع واستدلوا على وقوعه في القرآن والسنة فقالوا: إن لفظ (القراء) للظهر والحوض ولفظ (عسعس) لأقبل وأدبر، قد وقع كل منهما في القرآن، فيكون المشترك واقعاً في القرآن، وجائز الوقوع في السنة كذلك؛ لعدم الفارق.

المبحث الثالث: نماذج تطبيقية، ويضم ثلاثة مطالب

المطلب الأول: تقييد السياق فيما يبدو ممكناً في الأسماء

النموذج الأول: الاشتراك في لفظة (شطره) في قوله تعالى: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } [البقرة: من الآية 144]. اختلف المفسرون في لفظة (شطر) في الآية الكريمة، بناءً على أنها من ألفاظ المشترك اللفظي كما نقل أصحاب اللغة _ إذ تحمل معنيين مختلفين، هما:

الأول: الشطرُ: النَّصْفُ يُقَالُ: شَطَرْتُ الشَّيْءَ، أَي: جَعَلْتُهُ نِصْفَيْنِ، وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلرَّجُلِ الْمَجْرِبِ لِلْأُمُورِ: فَلَانَ قَدْ حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ، أَي: قَدْ قَاسَى الشَّدَّةَ وَالرِّخَاءَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: " أَشْطَرَهُ " فَإِنَّمَا يَرِيدُ خَلُوفَهُ، يُقَالُ: حَلَبْتَهَا شَطْرًا بَعْدَ شَطْرِ. وَأَصْلُ هَذَا مِنَ التَّنْصِيفِ؛ لِأَنَّ كُلَّ خَلْفٍ عَدِيلٌ لِصَاحِبِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: شَاطَرْتُكَ مَالِي، أَي: نَاصَفْتَهُ.

وَالثَّانِي: نَحْوُهُ وَتَلْقَاءُهُ وَجَهَّتُهُ . وقصده، يقال: خذ شطر زيد، أي: قصده . قال أبو العباس: وأنشدني التوزي عن أبي عبيدة قول الشاعر:

(البسيط)

إِنَّ الْعَسِيرَ بِهَا دَاءٌ مَخَامِرُهَا * فَشَطْرَهَا نَظْرُ الْعَيْنِينَ مَحْسُورٌ

يريد ناحيتها وقصدها. (الكامل للمبرد، 1/155).

وبناءً على ذلك يكون في الآية قولان: (التفسير الكبير 4/ 98)

الأول: وَهُوَ قَوْلُ جُمُهورِ الْمُفسِّرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالمُتَأخِّرِينَ، وَاختِيَارُ الشَّافِعِيِّ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ _ : أَنَّ المُرَادَ جِهَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَتَلْقَاءَهُ وَجَانِبَهُ .

القَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ قَوْلُ الجَبَائِيِّ وَاختِيَارُ القَاضِي أَنَّ المُرَادَ مِنَ الشَّطْرِ هَاهُنَا: وَسَطُ المَسْجِدِ وَمُنْتَصَفُهُ لِأَنَّ الشَّطْرَ هُوَ النِّصْفُ، وَالكعبة واقعة في نصف المسجد من جميع الجوانب، فلما كان الجواب هُوَ التَّوَجُّهُ إِلَى الكَعْبَةِ، وَكَانَتِ الكَعْبَةُ وَاقِعَةً فِي المَسْجِدِ حَسُنَ مِنْهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ: قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ يَعْنِي النِّصْفَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

وما يجنح إليه الباحث الرأي الأول للأسباب الآتية:

الأول: ما يدلّ عليه سياق الموقف للآية، أي: (سبب النزول)، أخرج البخاري، وغيره عن البراء بن عازب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: لما قدم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المدينة، صلى نحو بيت المقدس ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة: 144] فوجه نحو الكعبة، وصلى معه رجل العصر، ثم خرج فمرّ على قوم من الأنصار، فقال: هو يشهد أنه صلى مع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وأنه قد وُجِّهَ إِلَى الكعبة، فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر. (صحيح البخاري: 87/9). وأخرجه مسلم من حديث أنس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: إن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يصلي نحو بيت المقدس. فنزلت: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة: 144]. (صحيح مسلم: 66/2، المحرر في أسباب نزول القرآن 1/224).

فالمتمامل لسبب النزول يدرك أنّ الموقف يدور حول الجهة التي كان النبي _ عليه الصلاة والسلام _ يصلي إليها، ولو كان المراد بالشطرن النصف لا الوجهة لاقتضى الحديث أنّ النبي كان يصلي إلى المسجد الحرام، ومن ثمّ أمر التوجه إلى نصفه، وهي الكعبة كما عند الجبائي .

الثاني: يؤيد ذلك قراءة عبدالله ابن مسعود وأبي بن كعب، { تَلْقَاءَ المَسْجِدِ الحَرَامِ } (ينظر: التفسير الكبير: 16/2)، والبحر المحيط لأبي حيان 1/429، وتفسير القرطبي: 1-2/149).

الثالث: تفسيرهم معنى الشطر بالنصف يقتضي أن يراد بالمسجد الحرام في الآية المسجد المحيط بالكعبة، أو يراد به مكة، أو يراد به الحرم وما يشمله حدود الحرم . قال الله سبحانه وتعالى: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى } [الإسراء: 1]، وكان مسراً من بيته . ويقع على جميع الحرم، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [التوبة: 28]. وليس هو كذلك، ففي سياق الآية ما يقيد، ويرجح إرادة الكعبة لا ما يحيط بها بدليل قوله تعالى: (فلنولينك قبلة ترضاها)، إذ قال " قبلة "، ومعلوم عند سلف الأمة وخلفها أنّ القبلة هي الكعبة؛ لِمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما -: أَنَّ النبيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا دَخَلَ البَيْتَ، دَعَا

في نواحيه كُلِّها، ولم يُصَلِّ فيه حتى خرج، فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة، ثم قال: "هذه القبلة" (مسند أحمد: 208/5، وتيسير البيان لأحكام القرآن: 174/1). قال ابن عاشور: " وَالْجُمُهورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ هُنَا الْكَعْبَةُ لِاسْتِيفَاضَةِ الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ بِأَنَّ الْقِبْلَةَ صُرِفَتْ إِلَى الْكَعْبَةِ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ وَأَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ يَوْمَ الْفَتْحِ وَقَالَ هَذِهِ الْقِبْلَةُ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ «وَدَكَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْمُرَادُ بِهِ الْبَيْتُ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُعَبِّرُ عَنِ الْبَيْتِ بِمَا يُجَاوِرُهُ أَوْ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ» (التحرير والتنوير: 29/2)

النموذج الثاني: الاشتراك في لفظه (قسورة) في قوله تعالى: { كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ } فرث من قسورة ﴿﴾ [المدرثر: ٥٠ - ٥١]. اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من اللفظ (قسورة) في الآية الكريمة؛ وذلك بسبب كونها من الألفاظ المشتركة بين معاني عدة:

الأول: الأسد، **الثاني:** القنّاص أو الرّماة، **الثالث:** ركز الناس (حسّم وأصواتهم)، **الرابع:** ظلمة الليل، **الخامس:** رجال أقوياء.

والذي يميل إليه البحث هو المعنى الأول والثاني لما يأتي:

الأول: إنّ مقام الآية مقام تصوير لبيان حال الكفار، وفرارهم من القرآن الكريم، وإرادة المعنى الأول وهو الأسد أشد بيانا، وأبلغ تشبيها، ولا يخفى أنّ القرآن ذو درجة عالية من البلاغة، يختار ما هو أقوى وأنسب للتشبيه، فتمكين اللفظ بهذا المعنى يناسب حال الكفار مع انكفاهم عن القرآن والنبى _ عليه الصلاة والسلام _ قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت منه، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً -صلى الله عليه وسلم-، أو سمعوه يقرأ، هربوا منه كما تهرب الحمير من الأسد". (التفسير البسيط: 461/22). ومن ثمّ أنّ القسورة الأسد، مأخوذ من: القسر، وهو: الغلبة والقهر على الكره، وهو أكثر مناسبة للفظ الحمر الوحشية. قاله أبو هريرة وابن عباس في رواية عنه وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن. (ابن كثير 282/8). وهو من اختيارات الإمام الشوكاني _ رحمه الله _ (فتح القدير: 400/5).

الثاني: القنّاص أو الرّامي، قال ابن عاشور " فَيَكُونُ التَّشْبِيهُ جَارِيًا عَلَى مُرَاعَاةِ الْحَالَةِ الْمَشْهُورَةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ". ويعني ذلك أنّ الإتيان بهذا اللفظ وإرادة هذا المعنى مراعاة للأنساق الثقافية للمجتمع، أي: مراعاة السياق الثقافي لدى العرب. قال الزمخشري: " ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب؛ ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدة سيرها بالحمير، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص ". (الكشاف: 657/4). وهذا تأويل جُمهور المُفسِّرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهما (ابن كثير 282/8، والتحرير والتنوير: 330/29) أما باقي المعاني فهي واردة لكن لا يوجد في السياق ما يوصي إليها، فقول زيد ابن أسلم قسورة في الآية هم الرجاء الأقوياء؛ لأنّ العرب تطلق على كلّ ضخم شديد قسور وقسورة. وكذلك قال ابن الأعرابي وتعلب: القسورة: أول الليل، أي: فرث من ظلمة الليل، ويقال لسواد أول الليل قسورة وبه قال عكرمة. أو عن أبي المتوكّل قال: هي لغط القوم وأصواتهم. (المحكم والمحيط الأعظم: 228/6، وتفسير البغوي: 180/5، وصفوة التفاسير: 456/3).

النموذج الثالث: الاشتراك في اسم التأويل، في قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران: ٧] اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من اسم التأويل في الآية الكريمة؛ وذلك بسبب كون التأويل من الألفاظ المشتركة بين معنيين، هما:

الأول : التفسير والبيان ، ومنه بهذا المعنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ابن عباس رضي الله تعالى عنه _ " اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ " (المستدرك على الصحيحين ، رقم الحديث، 6359 / 658/3) .

وقول ابن جرير وغيره من العلماء، القول في تأويل قوله تعالى : كذا، أي: تفسيره وبيانه، وقول عائشة رضي الله عنها_ الثابت في الصحيح (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن) تعني : يمتثل به ، كما في سورة النَّصْرِ . (صحيح مسلم بشرح النووي ، الصلاة باب ما يقال في الركوع : 201/4).

الثاني : حقيقة الأمر التي يؤول إليها، وهذا المعنى هو الغالب في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [الأعراف: ٥٣] وقوله تعالى: { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [الإسراء: ٣٥] وقوله: { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [يونس: 39] (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 189/1).

وسبب اختلاف المفسرين في معنى التأويل على هذا النحو هو اختلاف اللغويين في المادة اللغوية التي يدور عليها الجذر اللغوي (أ و ل) إذ إنه يدور عندهم على أصلين هما : **الأول :** الكشف والبيان، **الثاني :** الإيالة، وهي السياسة . قال الفيروز آبادي _ رحمه الله _ (ت: 817هـ) " واشتقاقه من الأؤل وهو الرجوع. فيكون التأويل بيان الشيء الذي يرجع إليه معنى الآية و مقصودها . وقيل التأويل إبداء عاقبة الشيء. واشتقاقه من المال بمعنى المرجع والعاقبة. فتأويل الآية ما تؤول إليه من معنى وعاقبة. وقيل: اشتقاقه من لفظ الأؤل. وهو صرف الكلام إلى أوله. وهذان القولان متقاربان. ولهذا قيل: أول غرض الحكيم آخر فعله. وقيل: اشتقاقه من الإيالة بمعنى السياسة. تقول العرب: (ألنا وإيل علينا) أي: سئنا وسييس علينا، أي: ساسنا غيرنا. وعلى هذا يكون معنى التأويل أن يسلط المؤول ذهنه وفكره على تتبع سير الكلام إلى أن يظهر مقصود الكلام، ويتضح مراد المتكلم " . (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 179/1_180) .

وكذلك اختلافهم في كيفية أداء النص الكريم من حيث الوقف والابتداء، فمن وقف على لفظ الجلالة "الله" أفاد بأن المراد بـ" تأويله" حقيقة الأمر التي يؤول إليها، هو قول الجمهور أمّا من وصله عطفاً نسقياً لا ابتداءً، فإنه يحمل " تأويله" على معنى التفسير والبيان، وهو اختيار ابن مجاهد . (ينظر فتح البيان في مقاصد القرآن: 184/2) .

فحجة من أراد المعنى الأول أنّ الله استأثر بعلم كنهه وحقيقته، نحو: حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته .

وحجة من أراد المعنى الثاني للتأويل: التفسير والبيان أنّ الآيات نوعان : المحكم، وهي : الواضحة الدلالة، يستوي في علمها جميع من يفهم الكلام . والمتشابه ، وهي : ما يعسر فهمها، أي: المعضلات في الفهم والعلم، يتأولها الراسخون في العلم. ويؤيد هذا وصفهم بقريظة الرُسوخ، قال ابن عطية (ت 542هـ) : " فتسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام

العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم، إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع، وما الرّسوخ إلا المعرفة بتصاريف الكلام وموارد الأحكام، وذلك كله بقريحة معدّة ". (المحرر الوجيز: 403/1).

فضلاً عن ذلك " أن أصل العطف هو عطف المفردات دون عطف الجمل، فيكون الراسخون معطوفاً على اسم الجلالة فيدخلون في أنهم يعلمون تأويله. ولو كان الراسخون مبنياً وجملته: « يقولون ءامناً به » خبراً، لكان حاصل هذا الخبر مما يستوي فيه سائر المسلمين الذين لا ريع في قلوبهم، فلا يكون لتخصيص الراسخين فائدة ". (التحرير والتنوير: 165/3).

وما ذكرناه من قول لابن عطية وابن عاشور " لا يعد أن يكون تزجيجاً لأحد التفسيرين، وليس إبطاً لمقابله إذ قد يوصف بالرّسوخ من يفرق بين ما يستقيم تأويله، وما لا مطمع في تأويله. " (التحرير والتنوير: 165/3). بل يتوجه المعنى بحسب الوقف والوصل؛ فمن وقف على لفظ الجلالة " الله " أفاد وجهاً من المعنى، ومن عطف " الراسخون في العلم " عليه أظهر الوجه الآخر. والله تعالى أعلى وأعلم.

المطلب الثاني: تقييد السياق فيما يبدو ممكناً في الأفعال:

النموذج الأول: الاشتراك في لفظة الفعل (اسكن) في نحو قوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 35]

ذكر بعض المفسرين أن الفعل (اسكن) من ألفاظ المشترك اللفظي؛ وذلك لأنه يحمل معنيين، هما: الأول: أسكنه مكان كذا: أي جعله مأوى ومنزلاً له. فيكون معناه: اتخذها مأوى ومنزلاً.

الثاني: أسكنه: أزال حركته، فيكون معناه: استقر في مكانك ولا تتحرك.

والذي يراه الباحث مقصوداً المعنى الأول لسببين:

الأول: إن سياق الآية بعده يطلبه؛ بدليل قوله: (وكلا..، ولا تقربا هذه الشجرة)، فلو كان المراد المعنى الثاني، وهو عدم الحركة، فما فائدة قوله لا تقربا؟

الثاني: إنما ورد الخطاب بعد أن كان آدم في الجنة، فكان المراد منه اللبث والاستقرار، أي: المطلوب منه أن يتخذ مأوى ومنزلاً له لا انعدام الحركة (اللباب في علوم الكتب: 1/ 552). (التفسير الوسيط: 121/1). قال الطبري: " قوله تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ } لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجها قال لآدم: اسكن، أي: لازم الإقامة واتخذها مسكناً ". (الجامع لأحكام القرآن: 298/1-299).

النموذج الثاني: { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: 60] اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من الفعل (ادعوني) في الآية

الكريمة؛ وذلك بسبب اشتراكه بين معنيين:

الأول: وحدوني واعدوني.

الثاني: الطلب والرغبة.

والذي يراه البحث مقصوداً هو المعنى الأول؛ لما يأتي:

الأول: قرائن سياق النظم تدل عليه؛ إذ قال تبارك وتعالى بعده { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: 60]، ففسر قوله ادعوني باعدوني القرينة اللغوية (عبادتي)، ومن ثم

قوله تعالى: (سيدخلون جهنم) يومئذ بذلك أيضاً؛ لأن عدم الطلب من الله لا يؤدي إلى دخول جهنم بل ذلك حصة العبادة أجمع. ويؤيد ذلك ما جاء عن ابن عباس قوله: { ادعوني أستجب لكم }، يقول: وحدوني

أغفر لكم. و عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « الدعاء هو العبادة، -

وقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِي } (مسند أحمد: 267/4).

الثاني: قوله تعالى في الآية ذاتها على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم -: { قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ

الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ } [غافر: 66]

ومما يعضده آيات أخر منها ، عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين. فذلك قوله: { فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [غافر: ٦٥] . وهو أولى المعنيين؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ فِي أَكْثَرِ اسْتِعْمَالَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ هُوَ الْعِبَادَةُ . قال الزمخشري: " ادْعُونِي، اعبدوني، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، ويدل عليه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي والاستجابة: الإجابة؛ وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم". (الكشاف: 179/4) .

أما من رأى أَنَّ (ادعوه) على الطلب والرغبة، فحجته أَنَّ الأصل في الدعاء الطلب حقيقة وشرعاً ، فضلاً عن ذلك حديث النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ، « من لم يسأل الله يغضب عليه » ويكون قوله: يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي بمعنى يستكبرون عن الرغبة . (الترمذي: 317/5 ، والتسهيل لعلوم التنزيل: 234/2) ومن ثَمَّ أعدوا هذا تصرّحاً من الله سبحانه بِأَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ وَهُوَ الطَّلَبُ هُوَ مِنْ عِبَادَتِهِ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ أَي: ذَلِيلِينَ صَاغِرِينَ. وهو اختيار الإمام الشوكاني _ رحمه الله _ (فتح القدير: 571/4).

وعلى ما يبدو أَنَّ الدُّعَاءَ لَا يَحْصُرُ بِحَقِيقَتِهِ ، وهو الطلب المحض فحسب، بل يؤدي معاني أخرى ، ويؤكد ذلك أَنَّ المقرر عند الأصوليين والمفسرين إمكان خروج اللفظ عن أصل وضعه بقرينة ، وهو ما تحقق هنا ، فعندئذ يصار إلى كونه الأولى لتلك القرينة، " فَأَلْخَصَّ يَفْضِي عَلَى الْعَامِّ مُطْلَقًا " بـ" دِلَالَةٌ السِّيَاقِ فَإِنَّهَا تُرْشِدُ إِلَى تَبْيِينِ الْمُجْمَلِ وَالْقَطْعُ بِعَدَمِ احْتِمَالِ غَيْرِ الْمُرَادِ وَتَخْصِصِ الْعَامِّ وَتَقْيِيدِ الْمُطْلَقِ " (البرهان : 200/2، وأضواء البيان: 425/5). والله أعلى وأعلم .

النموذج الثالث: الاشتراك في الفعل (يعدلون) ، في قوله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام: 1] . اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من الفعل (يعدلون) في الآية الكريمة؛ وذلك بسبب كون يعدلون مشترك بين معنيين، هما: **الأول** : عدل به غيره إذ سواه به، والمعنى أَنَّ العرب يجعلون لله سبحانه نظيراً وعتيلاً .

الثاني : عدل بمعنى (مال وصد)، فهو من العدول عن شيء بمعنى الانحراف والميل عنه . (تفسير القرآن العظيم : 297 /14 وتفسير النسفي : 5/2)

والذي يميل إليه الباحث من خلال قرائن السياق الحالية أَنَّ المعنى الأول هو المراد؛ كون الكفار والمشركين يجعلون لله أنداداً ونظراء ؛ ولأَنَّ " عدل الشيء بالشيء: إذا سواه به، وَمِنْهُ الْعَدْلُ. وَمَعْنَاهُ: يَعْدِلُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَشْرِكُونَ، وَالْمَعْنَيَانِ مُتَقَارِبَانِ؛ لِأَنَّ مِنْ سَاوَى غَيْرِ اللَّهِ بِاللَّهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ ". (تفسير السمعاني: 86/2). وما يؤيد هذا الميول قوله تعالى: { تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: ٩٧ – ٩٨] أَي: نَتَّخِذُكُمْ آلِهَةً. وقوله: { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلِ اللَّهُ قُلِ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتِ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [الرعد: 16] . وقوله: { أَفَمَنْ هُوَ قَانِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلِ سَمَوْهُمْ أَمْ تُنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الرعد: ٣٣] إلى غيرها ذلك من الآيات التي تؤيد معنى النظير والمساواة، ومن المقرر أَنَّ الحمل على غالب القرآن الكريم أولى، وهو اختيار حافظ ابن كثير . (تفسير القرآن العظيم : 8/6).

المطلب الثالث: تقييد السياق فيما يبدو ممكناً في الحروف ، وفيه ثلاثة نماذج :
النموذج الأول: الاشتراك بـ" إذ" ، في قوله تعالى: { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنعام : 27] اختلف المفسرون في دلالة " إذ" ؛ كونها من ألفاظ المشترك اللفظي في هذه الآية، فكانت آراؤهم على قولين: الأول: الأصل في دلالة "إذ" تكون

للماضي، تقول: "أتذكر إذ فعلت كذا؟"، وأنت في الآية تفيد الاستقبال، كقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا} [سبأ: 51]، أي: إذا فرغوا.

الثاني: "إذ" و"إذا" بمعنى وقد تكون "إذ" بمعنى "حين" كقوله جل ثناؤه: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: ٦١]، أي: "حين تفيضون". (الصاحبي: 99/1-100).

والذي نراه مقصوداً من المعاني، ومقدماً المعنى الأول لما يأتي:

لا يخفى أن مقام آية الأنعام مسوق عن الآخرة، إذ يقع في المستقبل، وهو ما يمنح "إذ" التي تفيد الماضي الاستقبال، قال ابن عطية: "ووقعت "إذ" في موضع إذا التي هي لما يستقبل". (المحرر الوجيز: 303/2)، بدليل قرينة الفعل المضارع "ترى" مستقبل، "و" و"جاء ذلك؛ لأن الأمر المتيقن وقوعه يعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع" (المحرر الوجيز: 303/2)، أو إتما كان كذا؛ لأن الشيء كائن وإن لم يكن بعد، وذلك عند الله جل ثناؤه، قد كان؛ لأن علمه به سابق وقضاءه به نافذ فهو كائن لا محالة". والعرب تقول مثل ذا؛ قال الشاعر:

ستندم إذ يأتي عليك رعيئنا * (الصاحبي: 99/1-100).

إذن: بقيت "إذ" على أصل وضعها، وإنما أفادت معنى الاستقبال من تكوثر القرائن المقالية والمقامية، أي: "إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له، فأما في كل موضع، وعلى كل حال فلا". (معاني النحو: 10/3)

النموذج الثاني: اشتراك الواو في (والذين يؤمنون)، في قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: 92] اختلف المعربون والمفسرون في "الواو"؛ بسبب كونها من ألفاظ المشترك اللفظي، إذ تحمل في الآية وجهين، هما:

الأول: يجوز فيها الاستئناف، والعطف. (إعراب القرآن وبيانه: 168/3).

الثاني: أنها عاطفة فحسب. (الجدول في إعراب القرآن: 119/7).

والذي يراه البحث مراداً حسب السياق الاستئناف؛ للسببين الآتيين:

الأول: إن المقام مقام ثناء على المؤمنين في هذه الآية، بدليل قوله: {وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}.

[الأنعام: 92]، ويوضح ذلك أكثر المقابلة: (الإندار لغير المؤمنين والثناء على المؤمنين).

الثاني: كون العطف وحده، أو جواز العطف؛ يقتضي أن يكون الاسم الموصول "الذين" معطوفاً على أم القرى، أي: لتنذر أهل أم القرى ولتنذر الذين آمنوا، فلو كان المراد إنذار المؤمنين كذلك، فما فائدة بيان حالهم بقوله: (يؤمنون به)؛ ولما أتى عليهم بقوله: {وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: 92]؟

النموذج الثالث: الاشتراك في حرف الجر "من"، في كلمة: "منه"، في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: ٦]. اختلف الفقهاء فيما يتيمم به، أهو متعين بالتراب وما له غبار، أو هو جائز بكل صعيد طيب؟ وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في معنى حرف الجر "من" في قوله تعالى: {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ} [المائدة: ٦]، فإنها محتملة لمعنيين، هما:

الأول: التبعض، وعليه فيتعين في التيمم التراب الذي له غبار يعلق باليد، وبه قال الإمامان الشافعي، وأحمد - رحمهما الله تعالى -، وقال الإمام الشافعي: "وكل ما وقع عليه اسم صعيد لم يخالطه نجاسة، فهو صعيد طيب يتيمم به، ولا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار؛ فأما البطحاء الغليظة، والرقيقة، والكثيب الغليظ فلا يقع عليه اسم صعيد". (أحكام القرآن للشافعي: 38).

الثاني: لابتداء الغاية، أي : مبدأ ذلك المسح كائن من الصعيد الطيب، فلا يتعين ما له غبار، وبه قال الإمامان أبو حنيفة، ومالك _رحمهما الله تعالى_، قال الجصاص(ت730هـ): "روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة : أنه يجزيه إذا ترك اليسير منه؛ وهذا أولى بمذهبه ؛ لأن من أصله جواز التيمم بالحجارة التي لا غبار عليها وليس عليه تخليل أصابعه بالحجارة . (أحكام القرآن : 438/5)

والذي يظهر للباحث أن يكون حرف الجر "من" في قوله تعالى: { فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ } [المائدة:6] لابتداء الغاية، وذلك لثلاثة أسباب، هي :

الأول : أن تفسير حرف الجر (من) في الآية الكريمة بابتداء الغاية، هو المؤيد بدلالة سياق الآية ، وذلك في قوله تعالى: ، فقوله { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } (من حرج) نكرة في سياق النفي زيدت قبلها "من" والنكرة في سياق النفي نص في العموم، كما تقرّر في الأصول، فالآية تدلّ على عموم النفي في كل أنواع الحرج ، والمناسب لذلك كون " من" لابتداء الغاية؛ لأن كثيراً من البلاد ليس فيه إلا الرمال، أو الجبال ، فالتكليف بخصوص ما فيه غبار يعلق باليد، لا يخلو من حرج في الجملة .

الثاني : أن تفسير حرف الجر "من" في الآية الكريمة بابتداء الغاية ، وهو المؤيد بسنة رسول الله _صلى الله عليه وآله _ فيما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث جابر _ رضي الله عنه _ قال: قال الرسول _صلى الله عليه وسلم _ : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِن قَبْلِي : نَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجَعَلْتُ فِي الْأَرْضِ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتَهُ الصَّلَاةُ ، فَلْيَصِلْ " . (صحيح البخاري : 74/1) وفي لفظ " فعنده مسجده وطهوره " (السنن الكبرى: 326/1)، قال الشنقيطي _ رحمه الله تعالى _ : " فهذا نصٌ صحيح صريح في أن من أدركته الصلاة في محل ليس فيه إلا الجبال أو الرمال أن ذلك الصعيد الطيب الذي هو الحجارة ، أو الرمل طهور له ومسجد ، وبه تعلم أن ما ذكره الزمخشري من تعين كون "من" للتبويض غير صحيح " . (أضواء البيان في إيضاح القرآن: 354/1) .

الثالث: القول بأن حرف الجر "من" في الآية الكريمة يفيد ابتداء الغاية، هو المتفق عليه في السياق القرآني، لا سيما في رفع الحرج عن المكلفين، وهو مقصد من مقاصد الشريعة الغراء كما في قوله تعالى: { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج: 78] . هذا هو السياق المقاصدي للقرآن الكريم ، ومن المقرر أن الحمل على ما تشهد له مقاصد القرآن الكريم مقدم على ما سواه .

الخاتمة وأهم النتائج :

بعد رحلة علمية سعينا فيها إلى بيان منزلة السياق وأثره في فهم النص القرآني واستنباط الدلالة المقصودة . نختم بحثنا هذا، ونبين ما قد أسفر عنه من نتائج، أبرزها :

- 1_ إن السياق القرآني معتبر في التراث الإسلامي، وهو ليس وليد هذه الأزمان المتأخرة، وإنما هو مرتبط بالتراث ارتباطاً وثيقاً منذ القدم ، وقد عُني به كثير من المفسرين ، ورعوه حق رعايته، وأنزلوه منزلته، من لدن الرسول الأمين _صلى الله عليه وسلم_ والصحابية والتابعين إلى عصرنا الحاضر .
- 2_ يُعدُّ السياق القرآني من أبرز دلائل الإعجاز في القرآن الكريم، ومن القواعد التي تكشف عن أحكام بنائه، وسعة دلالاته اللغوية؛ إذ يُبرز ما يكتنه النص الكريم من البلاغة ودقائق المعاني.
- 3_ توصلت البحث إلى أن السياق القرآني، بأنواعه المختلفة، قد يُبقي اللفظة المشتركة دالة على أكثر من معنى، إذ لا يقتصر دوره على تحديد معنى واحد، كما تفترض بعض الدراسات الدلالية الحديثة، بل يعمل

على ترجيح بعض المعاني واستبعاد أخرى. وهذا يدلّ على سعة النصّ القرآني وغناه الدلالي، مقارنة بغيره من النصوص، وهو ما يوافق المقولة المشهورة "القرآن حمّال أوجه".

4_ أكدّ البحث أنّ اللفظ المشترك لا يستقرّ في القرآن إلا على ما تسنده القرائن، وإن كان يحتمل في أصل وضعه اللغوي معنيين أو أكثر خارج السياق؛ غير أنّ القرائن هي التي تعيّن المراد، وتوجه المعنى إلى الدلالة التي يقصدها المخاطب ويفهمها المخاطب؛ ممّا يؤكّد الدور الحاسم للسياق في استجلاء دلالة النصوص، وتقبيد الصّحيح منها وتمييزه.

5_ أظهرت الدّراسة أنّ لكيفية أداء النصّ أثرًا واضحًا في تقبيد دلالة اللفظة المشتركة وتوجيه معناها، وهو ما يُعرف في القراءات بعلم (الوقف والابتداء)؛ إذ يسهم هذا الجانب الأدائي في بيان المعنى المكنون، كما في لفظة "تأويل"، قال تعالى: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } [آل عمران: 7]. فمن وقف على لفظ الجلالة "الله" أفاد أنّ المراد بـ"تأويله" حقيقة الأمر التي يؤول إليها، أمّا من وصله عطفًا نسقيًا لا ابتداءً، فإنّه يحمل "تأويله" على معنى التفسير والبيان.

وبذلك يتبين أنّ السياق القرآني ليس دليلًا ثانويًا في فهم النصّ الكريم، بل هو حاكم مركزي لا يستقيم التفسير إلا به، ولا يكتمل الإدراك إلا عن طريقه.

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

- * أحكام القرآن، محمد بن إدريس الشافعي، جمعه الإمام أبو بكر بن الحسين بن علي النيسابوري، حققه عبدالغني عبد الخالق، دار الإحياء للعلوم – بيروت، ط1/ 1990م.
- * أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية بيروت، ط1/ 1998م.
- * أضواء البيان في إيضاح القرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم – الرياض – دار ابن حزم بيروت، ط5/ 2019م.
- * إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (ت: 1403هـ)، دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سورية، ط4/ 1415 هـ.
- * الأقوال وأدلتها، لسراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي، تح: عبدالحميد علي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر بيروت – لبنان، ط1/ 1998م.
- * بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادي، تح: محمد علي نجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة، (د.ت).
- * البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1376 هـ - 1957 م.
- * التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن سعد شمس الدين، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة بيروت لبنان، 2019م.
- * التحرير والتنوير، محمد طاهر ابن عاشور، دار النشر التونسية، تونس 1984م.
- * التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم، محمد ابن جزي الكلبّي الغرناطي (ت: 741هـ) تح: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ط1/ 1416 هـ.

- * التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه مجموعة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1/ 1983م.
- * تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، وضع حواشيه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1/ 1989م.

- * تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، ترجمه صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، 2000 م.
- * تهذيب اللغة ، محمد بن أحمد الأزهرى، تح: محمد عوض ، دار إحياء التراث العربي- بيروت ، ط، 1 / 2021م.
- * جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري، تح: عبدالله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر للطباعة والنشر القاهرة - مصر ، ط ، 1/2001م .
- * دراسات في فقه اللغة ، صبحي إبراهيم الصالح ، دار العلم للملايين ، ط، 1/1960م.
- * روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، ضبطه علي عبدالباري، دار الكتب العلمية، ط، 1/1994
- * زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج بن محمد الجوزي، تح: عبدالرازق مهدي، دار الكتب العربي بيروت، ط، 1/1422 هـ .
- * سنن الترمذي لمحمد بن عيسى ، الترمذي، (ت: 279هـ) ، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، تح: بشار عواد معروف ، سنة النشر: 1998 م .
- * السنن الكبرى ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تح: محمد عبدالقادر، ط، 3/2003م.
- * السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، مثنى عبدالفتاح محمود، تح : فضل حسن عباس ، الجامعة الأردنية، 2005م.
- * الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها ، أحمد بن فارس ، ط، 1/1997م.
- * الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، تح: أحمد عطار ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط، 4/1987 م.
- * صحيح البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، مطبعة الكبرى الأميرية بولاق مصر ، ط، 1/1422 هـ .
- * صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن حجاج ، النيسابوري ، تح: محمد فؤاد ، مطبعة عيسى البابي - القاهرة ، 1995م.
- * فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق خان القنوجي (ت: 1307هـ) عني بطبعه وقدم له وراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت ، عام النشر: 1412 هـ - 1992 م .
- * فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني (ت: 1250هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط: 1 - 1414 هـ .
- * الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ، الملقب سيبويه ، تح: عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط، 3/1988م.
- *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود الزمخشري دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تح: عبد الرزاق المهدي .
- * لسان العرب ، ابن منظور محمد بن مكرم ، دار الصادر بيروت، ط ، 3/1414هـ.
- * اللغة العربية معناها ومبناها ، تمام حسان عمر ، عالم الكتب ، ط، 5 / 2006 م.
- * محاضرات في اللسانيات ، خالد خليل هويدي ، بغداد ، 2015م.
- *مسند أحمد بن حنبل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل (ت : 241هـ)، تح : السيد أبو المعاطي النوري الناشر : عالم الكتب - بيروت ، ط : 1 ، 1419هـ - 1998 م .

- * معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -الأردن، ط1،/2000م.
- *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، ط1، دار الكتب العلمية - لبنان - 1413 هـ - 1993م تح: عبد السلام عبد الشافي .
- * معجم العين: خليل بن أحمد الفراهيدي، تح: عبدالحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان ، ط، 2003/1م.
- *مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد الملقب بفخر الدين الرازي (ت: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط / 3، - 1420 هـ .
- الرسائل والأطاريح، والبحوث:**
- * آليات الحجاج في كتاب الاستدراك على أبي علي في الحجة للباقولي ، أطروحة دكتوراه، بسام إبراهيم علي جامعة تكريت / كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2022م .
- *أنواع السياق في القرآن الكريم دراسة تفسيرية موضوعية ، للدكتور أمال سيد حميد ، بحث منشور بمجلة جامعة الناصر، العدد السابع ، يناير ، 9371م .
- *السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة ماجستير ، إعداد الباحث : عبدالرحمن عبدالله المطيري ، 2008م .